

# صراع الدولتين العثمانية والبرتغالية في الخليج العربي "البصرة والحجاز"

بقلم : الدكتور  
جاهد بلطه جي (تركيا)

العسكري فراحوا يبحثون عن وسائل أخرى تمكنهم من السيطرة على الشرق ولا سيما على طرق البهارات والحريير. والبرتغال من الدول الأوروبية التي كانت قد حظيت بنصيب وافر من الغنى واليسار من مستعمراتها وتجارتها البحرية، فدفعها ذلك إلى تحرى سبل أخرى للوصول إلى

ان ما يتمتع به الشرق من ثروات كبيرة كان مطمح الغربيين منذ القديم فاسترعى انتباههم إلى هذه البقعة من العالم وحاولوا الاستيلاء عليها بشتى الطرق والوسائل في مختلف المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية، فقادوا حملات صليبية عديدة اشترك فيها مئات الألوف من ابنائهم فتصدى لها صلاح الدين الايوبي والسلاجقة والعثمانيون فأصيب بالفشل الذريع واخفق الغربيون في تحقيق آمالهم بالغزو



عند مدخل الخليج العربي فقطع السبيل على سفن المسلمين في نقل السلع الشرقية الى البحر المتوسط. وجدير بالذكر أن اقوى دولة في المنطقة في ذلك التاريخ كانت دولة المماليك في مصر وكان عليها التصدي للبرتغاليين وصدهم عن المنطقة. وهذا ما وقع فعلا، فقام السلطان المملوكي «قانسوه الغوري» عام ١٥٠٨ بارسال اسطول بقيادة حسين بك تلبية لطلب النجدة من حاكم كجرات محمود خان الأول (١٤٥٨ - ١٥١١) ضد الاعتداءات البرتغالية. ثم بعث اسطولا آخر بقيادة «سلمان رئيس»

الشرق، فقام البحار البرتغالي فاسكو دوجاما عام ١٤٩٨ بمحاولة بحرية سلك فيها طريق رأس الرجاء الصالح ووصل الى الهند كما هو معلوم عنه. ومنذ ذلك التاريخ ازداد اهتمام البرتغاليين بالشرق فكانوا يهدفون الى تغيير الاتجاه في طريق البهارات القديمة ونقل السلع الهندية الى الغرب الى طريق رأس الرجاء الصالح بدلا من البحر الاحمر والبحر المتوسط. ومن أجل تحقيق ذلك قام الريان البرتغالي «البوكيرك» عام ١٥١٥ بالاستيلاء على كل من جزيرة سقطرة في مدخل البحر الاحمر ومضيق هرمز

الا ان الاضطرابات التى وقعت في اليمن حالت دون تحقيق سلمان رئيس، لمهمته فعاد دون ان يفعل شيئاً. والواقع ان دولة المماليك كانت تفقد سيطرتها على الأوضاع في المنطقة، وكانت الانظار تتجه الى الدولة العثمانية لحل مشاكلها.

وبعد ان استقر الحكم العثماني في سوريا ومصر والحجاز عام ١٥١٧ وبغداد عام ١٥٣٤ والبصرة عام ١٥٣٨ وقعت المجابهة بين العثمانيين والبرتغاليين وذلك لأن اغلاق مداخل البحر الاحمر والخليج العربي من قبل البرتغاليين أمر يتعارض مع المصالح السياسية والتجارية للدولة العثمانية التى اصبحت خادمة الحرمين الشريفين وتولت حمايتهما من كل عدو داخلي أو خارجي. كما انها كانت قد فتحت لنفسها باباً للجهاد في أوروبا المسيحية، ولكي تتمكن من المضي والاستمرار في جهادها كان عليها ان تسيطر على ينابيع القوة والثروة ومنها طرق البهارات والحريز.

ومن ناحية اخرى كان حاكم كجرات قد لجأ الى طلب النجدة من العثمانيين ضد الاعتداءات البرتغالية. فبعث سلطان كجرات نادر شاه رسولا الى السلطان العثماني في ١٥٣٥ يطلبه على ما تعانيه بلاده من اعتداءات عليها من قبل المغول في البر والبرتغاليين في البحر، حتى انه ذكر في رسالته الى السلطان العثماني انه

أودع ثلاثمائة صندوق ذهباً وفضة أمانة في مكة المكرمة وطلب منه صرف هذا المبلغ في تجهيز اسطول لمجابهة البرتغاليين.

أما الدولة العثمانية فانها كانت على اتم ادراك بحاجتها الى اسطول كبير للوقوف في وجه التوسع البرتغالي في المحيط الهندي، وذلك هو الذي حملها على تقديم مساعدة للمماليك في انشاء ترسانة بالسويس وكان ذلك في عهد السلطان «بايزيد الثاني». ولما حكمت الدولة العثمانية مصر بادرت الى توسيع ترسانة السويس وبناء اسطول جديد اطلقت عليه اسم اسطول السويس من السفن الحربية التى تم انشاؤها في هذه الترسانة. كما ان العثمانيين انشأوا اسطولا يعمل على نهر الفرات اطلقوا عليه اسم اسطول «بيره جك» لاستخدامه في صد أى عدوان قد تتعرض له بغداد سواء من البرتغاليين عن طريق خليج البصرة أو من غيرهم.

وأول مجابهة بين العثمانيين والبرتغاليين كانت في جزيرة قمران فتصدى لهم سلمان رئيس الذي كان قد بذل طاعته وانقياده للدولة العلية، وكان سلمان رئيس قد استرد هذه الجزيرة مع زميله «حسين بك» بجده من البرتغاليين في عهد الخائن أحمد باشا والي مصر. والمجابهة الثانية بين الطرفين كانت في جزيرة «ديو» الواقعة في غرب الهند. ونادر شاه الذي طلب

النجدة من العثمانيين ضد البرتغاليين كان قد لقي حتفه في مصادمة معهم بجزيرة ديو عام ١٥٣٧ وخلفه في الحكم ميران محمد شاه الفاروقي ثم ال الحكم الى أحد أقرباء نادر شاه سليل الاسرة الحاكمة في كجرات وهو محمود الثالث. وعندما قدم قائد الاسطول العثماني «خادم سليمان باشا» بقواته البحرية الى جزيرة ديو قاومه محمود الثالث المذكور ووقف في وجه القوات العثمانية بالاتفاق والتحالف مع البرتغاليين. والقوات العثمانية التي نزلت في البر حاصرت قلعة ديو عشرين يوما واسقطت بعض مدافعها ولكنها اضطرت الى الانسحاب بسبب الاحوال الجوية وعادت الى ميناء مخا في اليمن.

وبعد سلمان رئيس وخادم سليمان باشا استمر الصراع العثماني - البرتغالي مع «بيرى رئيس» حيث ان البرتغاليين اغتتموا فرصة عودة سليمان باشا الى مصر وحاولوا احتلال ميناء جدة الا ان محاولتهم هذه باءت بالفشل أمام المقاومة العنيدة من محافظ قلعة جدة والامدادات التي بعث بها أمير مكة المكرمة. وفي اعقاب ذلك اتجهوا الى مصر وحاولوا احتلال ترسانة السويس واحراق الاسطول العثماني فلم يفلحوا في ذلك ايضا. غير انهم أحرقوا مدينة طور سينا، كما انهم احتلوا عدن عام ٩٥٠ هـ - ١٥٤٢م، وبعد مدة قصيرة من

احتلالهم لعدن اجلاهم عنها «بيرى رئيس» قائد اسطول السويس.

وفي عام ٩٥٨ هـ - ١٥٥١م توجه بيري رئيس باسطوله المؤلف من ثلاثين سفينة الى الهند فمر على جدة ووصل الى عمان والحق مسقط بالحكم العثماني وتصدى لسبعين سفينة حربية للبرتغاليين فهزمهم والجأهم الى قلعة هرمز على مضيق هرمز.

وبعد بيري رئيس اسندت قيادة اسطول السويس الى «مراد رئيس» الذي كان أمير لواء البحرين، فتسلم راية الكفاح ضد البرتغاليين الذين دأبوا في هذه الأونة على تقوية اسطولهم في بحر الهند وعدن، والتقى باسطولهم بالقرب من هرمز ودخل معهم في حروب بحرية عنيفة ولكنه لم يفلح في ذلك فاضطر الى الانسحاب الى البصرة.

وبسبب اخفاقه في مهمته تم عزله من منصبه وتعيين «سيدي علي رئيس» في ٩٦٠ هـ - ١٥٥٣م محله. فأصبح قائدا لاسطول السويس، واستطاع ان يفك الحصار المضروب على الاسطول العثماني في البصرة والقضاء على ما لقيه من السفن البرتغالية ولكنه اضطر الى مكافحة العواصف الشديدة في البحر فافقده ذلك قدرته على الحرب ولجأ الى سواحل الهند.

وبعد «سيدي علي رئيس» تم تعيين «قورد اوغلو خضر رئيس» في قيادة

اسطول السويس. وفي ذلك الوقت كان السلطان غلاء الدين يحكم جزيرة «سومطرة» وشبه جزيرة «ملاكا» باسم سلطنة آجه الاسلاميه، فارسل وفدا الى استانبول في ١٥٦٧/٩/٥<sup>(١)</sup> برئاسة أحد رجاله واسمه «حسين» لطلب النجدة من الدولة العثمانية. وجاء في رسالته الى السلطان العثماني ان البرتغاليين يحاربون الدولتين الاسلاميتين سيلان وكالكتا، وانه بحاجة الى مدافع وبنادق وعساكر لمجابهتهم وطلب من السلطان العثماني تزويده بذلك. فصادف مجيء هذا الوفد وجود السلطان العثماني في سفر (غزوة) «زيغتور» ووفاته وادى ذلك الى بقاء الوفد في استانبول لمدة سنتين.

ورغم وفاة السلطان سليمان القانوني وافقت الدولة العثمانية على طلب النجدة للدولة الاسلاميه، وقررت اسعافه باسطولها في السويس وجهازت اكثر من عشرين سفينة حربية بقيادة قبطان السويس «قورد اوغلو خضر رئيس» وفي الوقت الذي تأهبت فيه السفن العثمانية للابحار اندلعت ثورة الزيديين في اليمن بزعامة الامام مطهر واقتضى الأمر تكليف «خضر رئيس» بمهمة اخمادها، أما طلب النجدة للدولة الاسلاميه «آجه» فتم تحقيقه ايضا فارسلت سفينتان الى سومطرة تحملان الادوات والمعدات اللازمة والخبراء، وهؤلاء العثمانيون

الذين ذهبوا الى سومطره توطنوا فيها واطن ان لهم احفادا لا يزالون يعيشون في جزر اندونيسيا حتى اليوم.

ان المحاولات البرتغالية الرامية الى فرض السيطرة على هذه المنطقة وكذلك المظالم التي ارتكبتها البرتغاليون في الخليج العربي يمكن الوقوف عليها ومتابعتها من وثائق الارشيف العثماني باستانبول.

ومن هذه الوثائق العثمانية حكم صدر بتاريخ ٩٧٨ هـ - ١٥٧٢ م في عهد السلطان سليم الثاني الى أمير امراء مصر وجاء فيه :

«أفادت المعلومات الواردة من البحرين ان الكفرة البرتغاليين لا يزالون يغيرون على جوانبها بسفنهم الحربية فيفسقون فيها باسر المسلمين ونهب أموالهم وقد يصل ضررهم الى جوانب مخا وعدن فقبطان مخا ليست لديه سفينة مطلقا والدفاع عن تلك البقاع من المهمات فعليك تجهيز سفينتين حربييتين من السفن المتواجدة في السويس تجهيزا كاملا بالالات والمعدات الحربية والرجال وارسالهما الى قبطان مخا لاستخدامهما في الدفاع عن نواحي عدن ومخا ومتابعة الاحوال والأوضاع في اليمن بارسال من يأتيك باخبارها في كل حين، فلا ينبغي ان يلحق ضرر من الكفرة الفجرة لمدن أو أى محل آخر فلا تهمل مهمة الدفاع

عن تلك النواحي والاصقاع واتخذ جميع التدابير اللازمة لحراستها ولا تفوتنك لحظة واحدة في باب الاهتمام بها، كما عليك اعلام استانبول عن كيفية تجهيزك للسفن وتاريخ ارسالها وما تحصل عليه من أخبار ومعلومات صحيحة عن الأوضاع السائدة في اليمن والبنادر الواقعة فيها وفي الحجاز. في ١٥ جمادى الآخرة سنة ٩٨١ هـ» (٢)

وجاء في وثيقة أخرى يعود تاريخها الى هذا العهد أيضا ان البرتغاليين احتلوا بعض الاجزاء من ولاية الحبشة وقتلوا سكانها واستولوا على بعض القلاع في الهند وأغاروا على سواحل اليمن والحبشة والحجاز بسفنهم فصدر حكم الى أمير امراء مصر بإنشاء عدد كاف من السفن الحربية في السويس وتم مدّه بالاختشاب السواكن وسائر المعدات اللازمة لانهاؤها وتزويد حسن بك أمير لواء السويس بتعليمات حول تجهيزه السفن والوقوف بها على أهبة الاستعداد وأمر السواقين بارسال المعدات اللازمة كما جاء فيها أمر صارم بعدم السماح للعدو باحتلال البنادر (٣).

ويبدو من ذلك ان البرتغاليين كانوا قد عقدوا العزم على فرض سيطرتهم على منطقتي الحجاز والبصرة، أما العثمانيون فكانوا مصممين على ردهم من هذه المناطق لحماية وحراسة

الحرمين الشريفين والحيلولة دون وقوع طرق نقل السلع الشرقية الى الغرب في أيدي غير اسلامية.

وهذا الموقف الحازم للعثمانيين حال دون وقوع الحجاز والبصرة في يد غير المسلمين فبقيت تلك المناطق تحت الاشراف العثماني فكان لهم التفوق في البحر المتوسط الا انهم لم يستطيعوا ان يحققوا ذلك في بحر الهند لان ترسانة السويس لم تكن كافية لتحقيق هذا الهدف، فكان الأمر يتطلب أما انشاء ترسانة كبيرة في السويس أو فتح قناة فيه تقسح المجال أمام الاسطول العثماني في البحر المتوسط للعبور الى البحر الأحمر ومنه الى بحر الهند. واختار العثمانيون الحل الثاني وصدر حكم بتاريخ ١٢ رجب ٩٧٥ هـ الى أمير أمراء مصر بأمره باعداد مشروع في فتح قناة السويس تربط بين البحر المتوسط والبحر الأحمر بارسال تقرير عنه الى استانبول (٤) ورغم كل ذلك فان العثمانيين كانوا يميلون الى عقد صلح مع البرتغاليين، والرسالة التي بعث بها السلطان العثماني الى ملك البرتغال «سبستيان» في شهر ربيع الآخر لعام ٩٧٢ هـ تدل على ذلك.

ويقول السلطان العثماني في رسالته هذه :

«ان كان قصدكم الصلح والسلام فكفوا أيديكم عن الاعتداء على الحجاج والتجار عند وصول رسالتنا

الهند من ناحية وامكانات عقد الصلح  
مع البرتغاليين من ناحية أخرى، لأن  
البرتغاليين كانوا يغيرون باساطيلهم  
القوية على الدول الاسلامية الصغيرة  
في المنطقة ويوقعون بها الاضرار.

الهمايونية وابعثوا الينا رسالتكم مع  
مندوبكم المعتمد عليه ليصار الى تقرير  
النظام في تلك الاصقاع».<sup>(٥)</sup>  
وهكذا كان العثمانيون يبحثون عن  
وسائل انزال اسطول كبير في بحر

## الهوامش

- (١) دفتر مهمة ٧، الصفحة ٨٦ - ٩٠
- (٢) دفتر مهمة ٢٢، الصفحة ٦٤
- (٣) دفتر مهمة ٤٨، الصفحة ٣٣
- (٤) دفتر مهمة ٧، الصفحة ٢٨٥
- (٥) دفتر مهمة ٦، الصفحة ١٦٦

